قصر :

النشيد السوري

للأستاذ علي الطنطاوي

ناظم هذا النشيد أديب كبير ، وصديق كريم ، وهو يعلم أن ليس له عندي إلا الاجلال والتوقير ، وأن الشاعر (وإن نبغ) يسبق تارة ويقصر ، وإن الناقد (وإن قسا) لا يصدر عن حقد ، ولا يرمي إلى تحقير ، وإن مصلحة الوطن بإصلاح نشيده تسوغ مفاجأة الصديق الكبير بنقد هذا النشيد .

« علي »

كانت نشأتنا الأولى في عهد العثمانيين ، وكانت لهم أناشيد يلقونها علينا باللسان التركي ، لذا لم نكن نفهم معانيها الضخمة إلا بالترجمة ، والترجمة لا تحمل دائماً المعنى كله ، فلقد كانت تهزنا ألحانها القوية المثيرة التي وضعت لتكون لمشاة الجيش قوة وعوناً . وكنا إذا أنشدناها سائرين لا نستطيع أن نقف ، وإذا تلوناها واقفين سرنا ، وإن قرأناها قاعدين حركنا ، من غير قصد منا ، أيدينا وأرجلنا — وإنها لتحرك الحجر ! ثم جاء عهد فيصل ، وكان عهد ازدهار وحياة ، ونشاط بدا في كل شيء ، فنشطت فيه الأناشيد العربية من عقالها ، فترجمت أكثر الأناشيد التركية ، فكان منها نشيد :

أنا أمي لم تلدني إلا للحرب العوان

بنغمته القوية ، ولحنه العاصف — وكان أسير أناشيد ذلك الزمان وأشهرها نشيد : (أيها المولى العظيم) ، الذي اعتبر النشيد الوطني السوري بل العربي ، على هلهلة أسلوبه ، وضعف معانيه ، يليه في الشهرة والذيوع نشيد :

أنت سوريا بلادي أنت عنوان الفخامه
كل من يأتيك يوماً طامعاً يلقى حمامه

لفخري بك البارودي ، وهو نشيد ضعيف النسج ، متهافت البناء ، لكن معانيه في الذروة ، واشتهرت أناشيد أخرى منها نشيد : (سيروا لمجد طرأ سيروا للحرب ، واستعيدوا بالمواضي دولة العرب) ؛ ونشيد طلاب المدرسة الحربية : (نحن جند الله شبان البلاد) ، وهو من خيرها لفظاً ومعنى ، وقد جمعها (الفلاح العربي) في رسالتيه المعروفتين في تلك الأيام .

ثم لما قضى الله قضاءه فينا في (ميسلون) ، ووقعت الواقعة ، ودخل العدو ديارنا ، منعت هذه الأناشيد كلها ، إلا أن تردد همساً ، واشتهر يومئذ نشيد الأستاذ أديب التقي رحمه الله : (في كل صوب حشدت عساكر مدججون) ، الذي يصور فيه موقعة ميسلون ، فكان ينشد وراء الأبواب ، وحيث لا يسمعه الناصبون ، وهو نشيد جيد ، لحنه حزين مؤثر .

وانقطع بعد ذلك سيل الأناشيد الوطنية ، حتى قدم علينا من العراق الكشافون في العهد الوطني الأول (سنة ١٩٣٦) ، فأخذنا منهم نشيدين اشتهرا فينا وسارا بيننا ، حتى كان الطفل الذي لم يتعلم بعد الكلام يدير في حلقه كلمات منهما ، وهما (هذا الوطن حق له أن يفتدى بالدما والمهج) و (نحن كشاف العراق) ، والشعر فيهما ليس بذاك ، واللحن فظيع هو أشبه بصراخ لا دلالة له ، منه باللحن الذي يؤثر في الأعصاب ويحرك القلب ، ولكنهما مع ذلك نشيدان قويان

ووضع على أثر ذلك أناشيد جيدة منها (نحن الشباب لنا الغد) ، ولكن يعيب لحنه هذه الصيحة المؤنثة في آخر البيت ، عند تكرار (نحن الشباب) ، فهي صيحة عجوز ثاكل كان لها الأمس ، لا صيحة شباب لهم الغد ، والنشيد العظيم حقاً في نظمه ولحنه ، ولفظه ومعناه ، نشيد : (موطني) لفقيد الشعر ابراهيم طوقان — رحمه الله — ومن أجودها لحناً نشيد الأستاذ حسني كنعان : (أيها الكشاف بادر وارتق أوج العلا) ؛ ولحنه نموذج للألحان الحماسية — نسجل هذا للتاريخ !

وصحت النية على وضع نشيد للجمهورية السورية ، وكانت مسابقة ، ولجنة ، وجائزة ، ثم عدل عن ذلك واختير النشيد الذي قدمه هذا الأديب الكبير ، فلما قرأناه علمنا أنه لوحظ باختياره اسم الشاعر ومنزلته ، وإنه لها لا لبراعة الشعر فرض علينا هذا النشيد ، واحتملناه سنين ، غير أنه لا يصح أن نحتمله الآن ، وقد تم استقلالنا ، أو هو قد أشرف على التمام ، واستقبلنا عهداً من حياتنا جديداً ، ولا بد من بيان عيب هذا النشيد لنستبدل به :

* * *

الأصل فى النشيد الوطنى أن يكون على لسان المتكلم ، لأن الأمة هى التى تردده وتنطق به ، وهذا النشيد موجه إلى حماة الديار ، مطلعه :

حماة الديار عليكم سلام
أبت أن تذل النفوس الكرام

فمن الذى يقول هذا الكلام ، ومن المخاطب به ؟ إن كان ينطق به الشباب وهم حماة الديار ، لم يعقل أن ينادوا أنفسهم ، ويسلموا عليها ، وليس هذا من (التجريد) الذى كان يألفه شعراء العرب ؛ وإن كان يقوله غير الشعب لم يكن مقبولا ، لأن النشيد يوضع ليقوله الشعب ، ويترجم به عن آماله ومطامحه .

ثم إن هذا السلام المنكّر ، من منكر القول ، وهو بلهجة أروام الأسكندرية وأرناؤوط الشام أشبه ، وليس يليق بهذا المكان ، ولا محل له فى البلاغة ، هذا إذا كان للسلام ورده داعٍ ولا داعى له هنا أصلا .

ثم يقول بعد هذا :

عرين العروبة بيت حرام
وعرش الشموس حمى لا يضام

فلا يعرف السامع ما عرين العروبة هذا ، أهو الجزيرة أم مصر أم الشام أم العراق ؟ ولا يعرف المسلم (بيتاً حراماً) إنما يعرف البيت الحرام ، لا ثانى له ، فهذا التنكير أولا ، وابتذال اسم البيت الحرام فى كل مكان ثانياً ، كلاهما قبيح . وما هو هذا العرش ، والنشيد نشيد جمهورية ؟ أفنظمه ليكون النشيد الرسمى لبنى أمية ، وأى شموس هذه؟ وما هذا الإبهام حيث لا يحسن إلا التصريح والتوضيح؟ يأتى بعد ذلك هذا المقطع العجيب :

ربوع الشام بروج العلاء
تحاكى السماء بعالى السناء
وأرض زهت بالشموس الوضاء
سماء لعمرك أو كالسماء

أما (بروج العلاء) هذه فتصح فى كل أرض يريد أن يبالغ فى مدحها القائل ، ولا تدل على ميزة للشام ولا تصفها بصفة فيها ، ولا تعرف بها الغريب عنها ، ولا محببها إلى أبنائها ، فهى كرائى الأستاذ على الجارم التى تسلح لغازى وللاسكندرانى وللشيخ المراغى ، لأنها تهد الجبال وتبكى السماء ، وتقيم القيامة ، أو ترسل على الدنيا قنبلة ذرية ، لا بحجم البيضة ، بل بحجم الفيل ؛ ثم لا تذكر المرثىّ بشىء مما كان عليه . وهذا استطراد نعتذر إلى الشاعر الكبير على الجارم بك منه ، فقد جرته المناسبة .

وما دامت الشام بروج العلاء ، وكان ذلك قد تقرر لدى السامع فما معنى كونها تحاكى السماء ، وبروج العلاء هى السماء فى أفهام الناس كلهم ، وهل السماء أسنى سنا من البروج ؟ المسألة تحتاج إلى خبير فلكى .

ثم إن الضياء هو السنا بالقصر ، أما السناء بالمد فهو الارتفاع ، ومن هنا أطلق على المجد مجازاً ، فصار معنى قوله (بعالى السناء) برفيع الارتفاع ، وهو الحشو نفسه ، وهو إذا قيل فى القصيدة لا يقبل فى النشيد ، لأن النشيد كلمات معدودة وألفاظ محدودة ، لا يجوز أن يذهب لفظ واحد منها من غير أن يدل على شىء .

وهو بعد أن جعلها بروج العلاء التى تحاكى السماء ، عاد فهبط بها فجعلها (أرضاً زهت) ولكن بالشموس الوضاء ! وما فهمت إلى اليوم ما يريد بهذه الشموس التى رددها ولا يشبع من ذكرها ، إن كان يريد الحقيقة فهى شمس واحدة ما خلق الله سواها ، وإن كان يقصد المجاز ، فليذكر ما يدل عليه ويصرف الفكر إليه ، وما كل سامع للنشيد أو تالٍ يستطيع أن يجد له التأويل ، هذا إذا كان لهذا الكلام العجيب تخريج أو تأويل .

وأعجب العجب ، وأقبح القبح ، أن يعود بعد كل ما مر ، فيجعلها سماء ، ثم ينزل بها فيجعلها كالسماء ، وهذا ضدّ ما عليه البلغاء فى كل عصر ، وفى كل أمة ، ولا أحسب ذوقاً فى الدنيا يسيغه ، عدا عن هذا الحشو فى كلمة (لعمرك) ، وعمر من هذا الذى يحلف به ؟ ولمن هذا الخطاب ؟ والمفروض فى النشيد كما بينت أن ينطق به الشعب كله ؟ !

وما هو مغزى هذا كله ، وما دلالته ، وأى مجد للشام يذكر ، وأى عاطفة تثير ؟ لا شىء ، إلا هذه المناقشة المزعجة فى الشام : هل هى بروج العلاء تشابه السماء برفيع الارتفاع ؟ أم هى أرض ولكن زهت بالشموس ؟ أم هى سماء (وحياة عمرك ...) أم